آفاق الثقافة والتراث

مجلة
فصلية
ثقافية
تراثية

تصدر عن دائرة البحث
العلمي والدراسات
بمركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث

السنة السادسة ، العددان الثاني والعشرون والثالث والعشرون - جمادى الثانية ١٤١٩ هـ - أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٨م

مخطوط الكواكب الدرية وتخميساتها - ٨٥٧ هـ

MANUSCRIPT " AL KAWAKIB AL DURRYA WA TAKHMISATIHA" 857 (A-H)

دراسات روسية حول:

تاريخ جزيرة العرب قديمًا

مشكلات دراسية*

ترجمة الأستاذ
سمير نجم الدين سطاس
مركز جمعة الماجد - قسم التراث الوطني

مقدمة

لا يستطيع الباحث في التاريخ القديم لجزيرة العرب ؛ أي فترة ما قبل الإسلام ، إلا أن يهتدي في بحثه بنور الإسلام الذي انبثق فجره ، وانطلقت أنوار هدايته من قلب الجزيرة العربية ، وما ذلك إلا لأن الباحث في عمق ذلك التاريخ لا تسعفه المراجع التاريخية التي تتعرض لذلك التاريخ بسبب ندرتها، وإن وجدت فإنها لا تشبع نهمه ، لقلة الحديث عن تلك الحقبة الممتدة عبر الزمن ، وما نجده ليس سوى نبذات قصيرة ، وأحداث قليلة ، لا تسمن ولا تغني من جوع.

على الرغم من أن للعرب تاريخًا ممتدًا ، شأنهم في ذلك شأن بقية شعوب الشرق الأدنى، إلا أن الباحث لا يستطيع فهم مسألة ظهور فجر الإسلام فهمًا دقيقًا إلا من خلال دراسة متأنية متعمقة لتاريخ العرب، الذين حملوا على عاتقهم نشر الإسلام في بقاع الأرض كلها، كما لا يمكنه الحكم على دور الجزيرة العربية في صناعة تاريخ العالم القديم إلا من خلال تحليل تاريخ الممالك العربية القديمة ودراسته، وتعرف ثقافاتها؛ سواء ما كان منها في جنوب الجزيرة العربية كالمعينية والسبئية والحميرية، أو ما كان منها في شمال الجزيرة العربية كالمملكة النبطية، والتدمرية، والغسانية، والكنديّة، أو في غرب الجزيرة العربية، في مكة والمدينة. إضافةً إلى تلمس العقائد الدينية التي كان

* نال به الباحث أخادجان حسنوف درجة الدكتوراه في التاريخ سنة ١٩٩٤م باللغة الروسية من أكاديمية العلوم، معهد البيروني للدراسات الشرقية بطشقند - جمهورية أوزبكستان.

العرب يؤمنون بها قبل الإسلام، والتعمق في دراستها وتحليلها.

من هنا حاولنا في هذه الرسالة تحقيق هدف ارتسمت ملامحه، وحددت العناصر الموصلة إليه، ذلك أننا نتوخى من ورائه تحليل التاريخ السياسي القديم لجزيرة العرب بالتفصيل، والوصول إلى صورة دقيقة معبرة عن مجتمعات تلك الدول، التي نشأت في جزيرة العرب خلال الفترة الواقعة ما بين الألف الثالثة قبل الميلاد وبداية بزوغ فجر الإسلام، وقيام الدولة المركزية التي كان قيامها عاملاً رئيسًا في توحيد الجزيرة العربية كلها تحت راية واحدة.

منهج البحث

قسّم الباحث أطروحته إلى مقدمة وسبعة فصول.

تناول الباحث في المقدمة وصفًا عامًّا لما كانت عليه الجزيرة العربية في تلك الفترة، كما تناول فيها دور جزيرة العرب ومكانتها في تاريخ العرب القديم.

أما الفصل الأول فقد تمّ فيه استعراض المراجع التاريخية التي تدون التاريخ القديم للجزيرة العربية، وتحليلها، وبيان وجهات نظر مؤلفيها المختلفة، كما ألقي الضوء فيه على تاريخ الجزيرة العربية منذ القدم إلى ظهور الإسلام، إضافةً إلى بيان أهمية الكتابات والنقوش التي أسفرت عنها الحفريات: لأنها تشكّل مصادر هامة جدّا للوصول إلى الحقائق، وتعطينا هذه الكتابات والنقوش لمحة صادقة عن تاريخ الجزيرة العربية القديم.

وتناول الفصل الثاني الظروف الطبيعية، وسكان جزيرة العرب القديمة، كما تحدث عن مواطن الشعوب السامية، والظروف الطبيعية، والخواص الديموغرافية لجزيرة العرب في القديم، وتوصل الباحث فيه إلى تقسيم الجزيرة إلى ثلاثة أقسام، معتمدًا فيه على المراجع الرومانية واليونانية، هي: جزيرة العرب الصخرية، والصحراوية، والسعيدة؛ كما قسّم المؤلفون سكان جزيرة العرب في القرون الوسطى إلى قسمين هما: «العرب البائدة» و«العرب الباقية»، وبيّن أن نمط حياتهم قديمًا جعلهم ينقسمون إلى جماعتين كبيرتين هما: القحطانية (عرب الجنوب)، والعدنانية (عرب الشمال)، وبين سمات كلّ منهما.

أما الفصل الثالث فتناول فيه أقدم مجتمعات جزيرة العرب، وتحدث فيه عن ديلمون ومجان، وبيّن علاقة عرب الشمال مع الآشوريين والكلدانيين والأخمينيين. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الكتابات المسمارية التي تمّ اكتشافها في مناطق مختلفة توضح لنا العلاقات التجارية الوثيقة التي تعود إلى الألفين: الثالث والثاني قبل الميلاد والتي كانت تربط المدن السومرية، ولا سيّما مدن: أور وديلمون ومجان. بينما تشير الكتابات الآشورية، التي تمّ العثور عليها، والتي تعود إلى عهد شلمنصر الثالث /٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م/، وتفلاتيلاسر /٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م/، وسرجون الثاني/ ٧٢٤ – ٧٠٥ق.م/ وغيرهم. إضافةً إلى حروب القبائل العربية التي خاضتها مع المملكة الآشورية، ومن ثمّ مع المملكة البابلية بقيادة آل كلدان. ولا بدّ هنا من توضيح أهمية الطرق البرية التجارية التي دفعت الملك الكلداني نبونيد /٥٥٦ – ٥٣٩ ق.م/ إلى شنّ حملاتٍ على مدن جزيرة العرب الشمالية كـ: ديداد وخيبر وديديع ويثرب وغيرها، بهدف السيطرة عليها.

ويسلط الفصل الرابع الضوء على الممالك القديمة في جزيرة العرب الجنوبية مركّزًا على التاريخ السياسي لبعض الدول والممالك في هذه الجزيرة، كالمعينية، والسبئية، والحميرية، والصراع بين بيزنطة والفرس على جنوب جزيرة

دراسات روسية حول: تاريخ جزيرة العرب قديمًا مشكلات دراسية*

العرب، وعلى العلاقات الاقتصادية بين ممالكها القديمة. ولا بدّ من الإشارة إلى أن المملكة المعينية عاشت وازدهرت، حسب رأي المؤرخين، من القرن الرابع عشر حتى القرن الخامس قبل الميلاد، وأن الدخل الرئيس لهذه المملكة انحصر في التجارة الدولية، التي كانت تدرّ عليها أرباحًا طائلة. إلا أن ظهور مملكة سبأ وقتبان وأوسان شكّل عوائق كأداء أمام التجارة المعينية، وأدى اتحادٌ قام بين سبأ وقتبان إلى انهيار المملكة المعينية.

إضافة إلى أن تاريخ مملكة سبأ ينقسم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وفيها تمت تسمية حكّام سبأ بالمكرّبين، الذين امتدّ حكمهم من عام ٩٥٠ ق.م حتى عام ٦١٠ق.م، واتخذوا صيرواح عاصمة لمملكتهم. والمرحلة الثانية عندما لُقّب الحكّام المكربون بالملوك، وامتدّ حكمهم من عام ٦١٠ ق.م حتى عام ١١٥ ق.م، واتخذوا مأرب عاصمةً لهم.

كما تحدث عن الأسباب التي أدت إلى انهيار المملكة السبئية، التي قامت على أنقاضها المملكة الحميرية، التي ينقسم تاريخها إلى مرحلتين: الأولى من عام ١١٥ ق.م إلى عام ٢٧٥ ق.م، وعاصمتها ريدان في مدينة ظفار، والثانية من عام ٢٧٥ ق.م إلى عام ٥٢٥م، وعاصمتها صنعاء. وقد تمكن المؤرخون من التوصل إلى أسماء أربعين حاكمًا حكموا حمير، وسنوات حكمهم، إلا أنهم أخفقوا في ملء الفراغ في فتراتٍ زمنية طويلة بأسماء حكّام حمير، كالفترة من عام ١٤٥ حتى عام ٢٤٥م، ومن عام ٣٠٠ إلى عام ٣٧٤م. ولعل السبب يعود إلى عدم اكتشاف كتابات أو نقوش مؤرخة في هذه الفترات تشير إلى أسماء الحكام.

ويسلط الفصل الخامس الضوء على الممالك القديمة في جزيرة العرب الشمالية والمركزية، كما تناول التاريخ السياسي لتلك الممالك، مثل الأنباط، وتدمر، والغساسنة، والمملكة اللخمية، والكندية.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن مملكة النبط كانت أول مملكة تظهر في المنطقة من بين هذه الممالك. إلا أن المراجع المتوافرة لا تعطينا معلوماتٍ مهمة عن هذه المملكة التي ظهرت مع عاصمة البتراء، التي تعدّ الآن من الأوابد الأثرية في المملكة الأردنية، التي تستقبل السوّاح من جميع بقاع العالم على مدار السنة.

ومملكة النبط هذه قامت في منطقة جزيرة العرب التي أطلق عليها المؤلفون اليونان والرومان القدامى اسم جزيرة العرب الصخرية.

ومن الجدير بالذكر أن الكتابات النبطية التي تمّ اكتشافها في أراضي المملكة النبطية منقوشة بالخط الآرامي، الخط الذي كانت تشترك في استخدامه جميع الشعوب التي قطنت جنوب الفرات، حتى ظهور الإسلام.

وقد حاول بعض المؤرخين إعادة بناء النشاط السياسي للأسرة النبطية وضبط أسماء عددٍ من الملوك الذين حكموا النبط، من أمثال الحارث الأول، وربّيل الأول، والحارث الثاني، وعبيد الأول، وغيرهم. ولا ينسى الباحث أن يوضح أن نفوذ مملكة النبط امتدّ على بقعة شاسعة جدّا. وهذا ما تشهد عليه الكتابات النبطية، التي تمّ العثور عليها في دمشق، وجنوب فلسطين، وشرقها، وفي مدين وديدان، وعلى الساحل الشمالي للبحر الأحمر، وفي القسم الشرقي من دلتا النيل. إلا أن استيلاء الرومان على البتراء قد وضع حدّا لاستقلال مملكة النبط.

والجدير بالذكر أن الديار النبطية التي شغلت موضعًا استراتيجيًا هامًا خلال الألف الأولى قبل الميلاد كانت «تفاحة الخلاف والنزاع»، في البداية بين حكّام مصر والآشوريين والبابليين والفرس، ومن ثمّ بين قادة الإسكندر المقدوني والروم. كما تناول الحديث عن المملكة التدمرية منذ لحظة

استيلاء الرومان على سوريا، والصراع الذي دار بين التدمريين بقيادة أذينة والفرس. وعلاقة أذينة مع الامبراطورية الرومانية، وكذلك موقف الرومان من الملكة زنوبيا التي أرادت توسيع مملكتها، وجعلها امبراطورية عظيمة، الأمر الذي أرعب الرومان، فجعلهم يشنون عليها الحروب، مما أدى إلى وقوعها في الأسر مع عددٍ من المقربين إليها، وإرسالها إلى روما مكبلة؛ كي يفخر الرومان بانتصارهم عليها.

كما سلّط الضوء على مملكة الحيرة، وتحدث عن ملوكها، وعن الحروب التي دارت بين الملك المنذر الثالث /٥٠٥ – ٥٥٤م/ والغساسنة، ولا سيّما الملك الغساني الحارث بن جبلة، الذي تمكّن بعد عدة هزائم من الانتصار على المنذر والقضاء عليه. كما أشار إلى حركة التنصير الكبيرة التي جرت في المملكة اللخمية، والتي وضع شاهنشاه فارسي حدّا لها ولآل لخم. وتحدث عن الغساسنة وعن المنطقة التي قطنوها، وعن إنشائهم العاصمة «جلّق»، والسبب الذي دعا الامبراطور البيزنطي يسطانوس إلى منح الحارث الثاني لقب «نبيل روماني». كما أشار إلى الأحداث التي جرت في جزيرة العرب المركزية في نهاية القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادي، وإلى ظهور مملكة مكة والمدينة.

أما الفصل السادس، الذي يحمل عنوان «الحجاز القديمة»، فيتحدث عن تاريخ مكة والمدينة منذ القديم، وعن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها قبل ظهور الإسلام. وكذلك عن القبائل المقيمة فيها، وعلاقاتها مع المدن المجاورة، وركّز على الثروة الأساسية لمكة، التي كانت تكمن في التجارة، وعلى ظهور الإسلام فيها. وتحدث عن يثرب وتاريخها وسكانها، ولا سيّما الأوس والخزرج، وأشار إلى أن يثرب كانت المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية بعد مكة، التي تفوقت على الثانية من الناحية الاقتصادية.

وحمل الفصل السابع عنوان «الديانات في جزيرة العرب القديمة»، وتحدّث فيه عن الديانات التي كانت منتشرة في جزيرة العرب قبل الإسلام، والتي أثرت في المجتمع العربي وفي أفكاره.

وختامًا يمكن القول إنه مما لا شكّ فيه أن أعمال التنقيب عن الآثار وفكّ رموز الكتابات المنقوشة على الأحجار هي التي تطفىء ظمأ عشّاق التاريخ للمعرفة، وتُطْلع العالمَ على الحضارات القديمة، وتجيب عن أسئلة الكثيرين ممن تاهوا بين الحقيقة وغيرها، وهم يبحثون عن أجوبة عن الشعوب القديمة التي عاشت على هذه الأرض، وعن تراثها وعلاقاتها بعضها مع بعض. ومما يثلج الصدر الاهتمام الذي يبديه علماء الآثار؛ لاستنطاق الحجارة لإخبارنا عن ماضي الشعوب والملوك، وعلاقات الدول القديمة فيما بينها، وتجارتها ومصادر رزقها.

وليس أسوأ من أن يعثر المرء على قطعة حجرية منقوش عليها كتابات تنير الطريق أمام التائه فيتخطاها أو يقوم بتكسيرها وإخفاء معالمها، لهدفٍ ما، كأن يجني ربحًا ضئيلاً، لجهله بأن قطعة حجر صغيرة منقوش عليها بضع كلماتٍ مبهمة قد لا تُقدّر بثمن عند الباحثين عن المعرفة.